(١١)

بين « عولس » لجويس والأوديسه لهوميروس

يتحتم على من يريد أن يقف على حقيقة هذا الكتاب «عولس» أن يلم إلماماً تاماً بحياة المؤلف ونشأته وما كابده ، فإن أمرين ظاهرين لكل مطلع فى الوهلة الأولى ، الأمر الأول : رغبته فى تسجيل حياة العصر الحديث ، والأمر الثانى التجاؤه الى منهج المناجاة الباطنة « Monologue Interieure » ، وهذان الأمران نتيجة مباشرة لحياة جيمس جويس الشخصية ، أى أن فنه نشأ عن حياته ونبت فى أغوار نفسه ولذا كان الوقوف عليها بمثابة المفتاح لهذا الكتاب . ولا يمكن أبداً فى هذه الحالة بالذات أن يكون الكتاب مفتاحاً لحياة المؤلف كما نشاهده فى معظم كتب أناتول فرانس أو مارسيل بروست ، فإن هذين الكاتبين بالذات قد أفرغا قسماً كبيراً من ترجمة حالهما فى كتبهما .

ويلاحظ فى كتاب جيمس جويس وحدة المنهج واختلاف الأساليب ، ولم يجىء هذا الاختلاف فى الأساليب مصادفة وإنما

جاء لإتخاذه طريقة فنية مبتكرة وهو إخضاع اللغة لموضوع الفصل الذى يكتبه ، ومثله فى ذلك مثل الموسيقار المؤلف Gompositour أو الذى يطلقون عليه فى اللغة العربية صفة الملحن ، فإن الملحن الممتاز هو الذى يجعل نغم الموسيقى مطابقاً لمعانى الألفاظ التى يراد التوقيع لخدمتها كما هو المشاهد فى أوبرات فاجنر ، وهذا هو سر نجاح ذلك المؤلف الموسيقى العظيم وكل من اتبع طريقته ، لأنه بينما يوجد الانسجام فى الموسيقى أصلاً فيجب إيجاد هذا الانسجام نفسه بين الألفاظ التى تنشد ويتغنى بها وبين مجموع أنغام الموسيقى نفسها ، فإن منظراً يمثل عاصفة هوجاء واضطراباً فى أنفس أشخاص المنظر لا تصحبه موسيقى ناعمة أو هادئة كالتى تصحب منظر غزل فى ضوء القمر ، ويمكن أيضاً التوضيح بالاستشهاد بموسيقى ديبوسى فى قطعة المرايا Mirours وقطعة حديقة تحت المطر من وضع تشايكوفسكى .

ولذا فإن جويس الذى ورث المواهب الموسيقية عن أمه وكان هو نفسه موسيقياً قد أضاف بفنه الى مواهبه هذا المظهر ، فيجعل لكل فصل من كتابه أسلوباً ينسجم والمعانى التى يعبر عنها ، ونضرب لذلك مثلا الفصل الذى عقده لوصف مستشفى الولادة

والفصل الذى جعله للهوى العذرى ، والفصل الذى وصف فيه منظر تنفيذ حكم الإعدام وهكذا ، فإن هذه الفصول كلها وإن كانت مكتوبة بقلم واحد وقد تكون قد دبجت فى أوقات متقاربة وإن يكن نفس الكاتب واحداً ، إلا أن الأساليب مختلفة ، والاختلاف ظاهر أولاً فى اختيار الألفاظ وتنسيق جرسها والعناية بوقع أنغامها فى الأذن ، وثانياً فى تركيب الجمل ، وثالثاً فى طريقة الجلاء الذهنى الذى ينقله المؤلف الى القارىء على طريقته ، فيكون بمثابة مهندس الرى الذى يتصرف فى الماء بحسب حاجة الأرض وموسم الزراعة وغزارة الماء ومقدار المطلوب منه .

وبالجملة فإن جويس أثبت أن المؤلف فى حاجة الى مواهب كثيرة ليصل الى الدرجة الأولى فى تطبيق فنه وجعله موافقاً للأهداف التى يرمى إليها ، ومثل هذا المؤلف ينبغى له أن يتمتع بالحرية المطلقة ، ويجب عليه أن يكون على علم غزير باللغة بل باللغات ، ولذا فأنت تشعر أحياناً أثناء قراءة فصول هذا الكتاب أن مؤلفه يسكرك بفيض مواهبه وغزارة ألفاظه ويغمرك ويغرقك تحت وابل متتابع هطال من الكلمات المختارة للمعانى التى يريدها ، فإنه ليس صائغاً وجوهرياً ومثالاً ومصوراً وشاعراً وحسب ، بل هو غنى

جداً فى كل المواد اللازمة ، لإتقان كل صنعة من هذه الصناعات ، وغنى جداً بالأدوات اللازمة لإتقانها .

وقد صهر المؤلف كل تلك المواهب وكل تلك المواد في بوتقة واحدة ، وأضاف إليها روحه وعقله وعواطفه وآلامه وتاريخ حياته وحياة وطنه وأحداث عصره وأحاسيس الشعوب المختلفة التى مازجها واختلط بها أثناء الحرب العالمية الأولى وقبل ذلك بعشر سنوات ، ومؤثرات الأوساط المتباينة وأحداث العصر وأخبار الرجال والنساء العظماء والمطمورين من الجنسين ، صهر ذلك كله فى قالب واحد وهو كتابه .

ويبدو للقارىء لأول وهلة صدق هذا الاستنتاج من الفصل الذى عقده فى وصف جنازة دنجام ، وبلغ القمة فى المسرحية المنطوية على عجائب الفن حتى أنها تفوق وصف السوق الكونية التى نظمها جوته فى رواية فاوست .

ولم يكن من المستطاع لهذا المؤلف أن يغفل الدين والسياسة والأخلاق وعلاقة الجنسين فى هذا المعرض الكونى ، ولم يكن من المستطاع أيضا أن يخضع للقوانين أو المقاييس العرفية والعادية ، فإن له قانوناً خاصاً به وميزاناً ومقياساً يستلهمها ، كما أنه ألزم

نفسه بلوغ الذروة فى التعبير الصادق غاية الصدق والقوى غاية القوة حتى صار فنه خالداً ، ولا يمكن القول بأن هذا العمل جاء مصادفة أو بغير وعى من المؤلف كما يزعم بعض النقاد جهلاً ، فإن الوعى ملازم له فى كل لفظ وفى كل جملة ، حتى عندما يغفل الترقيم وعلامات الاستفهام والنقط والفواصل إنما فعل ذلك كله قصداً لغاية معلومة .

وليس ينبنى على أنه اختار منهج الحوار الباطنى أو المناجاة الداخلة على أنه هو نفسه كان بغير وعى ، فهذا منتهى الخرق فى الرأى من الناقد الذى ادعى أن كتاب جيمس جويس يقرأ من أوله الى آخره أو من آخره الى أوله ، فتكون النتيجة واحدة فى زعم ذلك الناقد الدعى ، وهذا الرأى المنسوب الى ينج أحد أصحاب فرويد – وهم أدلر وأتباعه – خطأ فى عقلية ينج وطعن فى علمه ، لأن جيمس جويس ليس مريضاً ولم يكن كتابه وثيقة معروضة للفحص بوصفها إنتاج مريض ليستطيع المحلل النفسانى أن يبنى عليها عناصر تشخيصه ، ومجرد التفكير فى هذا الرأى يدل على مرض ينج نفسه، فإن كتاب جويس ليس وثيقة مرضية أو إنتاج رجل مريض يعالج بالتحليل النفسى الذى هو خرافة هذا العصر وأسطورته

وإحدى وسائل الاحتيال والنصب فيه ، بل هو وثيقة إنسانية وعمل فنى باهر سليم وصاحبه أسلم كتاب أهل عصره ، بل وغيره من العصور .

أما الجانب الذى وصفوه بأنه مخالف للآداب ، يقصدون أنه فاحش ، فهذا الوصف مردود عليهم وهو صدى لنغمة إنجليزية عتيقة موروثة من العصر الفكتورى السحيق البائد المنافق ، فقد سبق لهؤلاء المتنطعين المرائين المتسترين وراء دعوى الفضيلة الكاذبة، سواءاً فى بريطانياً أم فى الولايات المتحدة ، أن هاجموا شاعرين عظيمين آخرين وذلك فى سنة ١٨٧٠ وما تلاها ، وهذان الشاعران هما Swinburne سوينبرن وهويت مان اللذان نظما دواوين أتلانتا وروز موند والملكة الأم وورق الحشيش وقد اتبع كل منهما فى نظمه آراء المدرسة الشعرية المعاصرة له « البريرافاييت » التى أسسها فى انجلترا روزيتى واختط فيها خطة جديدة فى الشعر والتصوير ، ولم يكن سوينبرن مقلداً بل كان مبتكراً ، ولكن صادف ابتكاره توافق الخواطر فى الطريقة ، ولا سيما فى ديوانه «القصائد والأغانى» فإن فيه ثورة على الأفكار المكتسبة بالتقليد والتى خضع لها المجتمع خضوعاً أعمى ، وزعم النقاد أنه ادعى

بالرغبة فى القضاء على الربوبية ومحو ذكرى الألوهية ولا سيما فى قصيدته « أنّا كتوريا » ، وأنه وصف الدين المسيحى بأنه جالب الأحزان والدموع الى الجنس البشرى ، وأنه فى قصيدة نشيد الثناء على الزهرة جمع بين التيار اللادينى وبين الشهوات الغامضة المهتاجة ، وجعل الفرح بالحياة قرين الحرية فى الحب ، وامتدح إلهة العشق وجنون « سافو » و« فرانجلولتّا » و« هرمافروديد » ، وكلها قصائد تدل على تلبس العقل بالجنسيات ، ورغبة الشاعر فى التحرر من مركبات النقص وعقد النفس التى أصابته فى شبابه وذلك كله قبل الاختراع العقيم الذى ساقه فرويد وأتباعه للدنيا .

ولكن هؤلاء النقاد الإنجليز المتفيهقين نسوا أنه لم يكن عصر روزيتى وسوينبرن وحدهما بل كان أيضا عصر بودلير فى فرنسا وتيوفيل جوتييه وارتور ريمبو ، وقد نظموا دواوين لا عدد لها ، لا يعد تحرر سوينبرن فى جانبها شيئاً خطيراً ، بل نسى الانجليز أنفسهم أن بيرون قد تحرر قبل هؤلاء بثلاثين عاماً وهجم بفنه الجديد وقصائده الرنانة على الحصون العتيقة والقلاع البالية ، وأصيبت فى زمنه انجلترا بحمى الفضيلة حتى أرغموه على الهجرة، ومرجع هذا كله ضيق العقل البيوريتانى « نسبة الى الشيعة

المتشددة المتحرجة المتزمتة » .

ومصدر هذا كله النفاق السكسونى ، وثورة الأدب والفن عند بعض الكتاب والشعراء على الاندفاع المادى الذى سكن عقول الانجليز وأغرقهم فى بحر مظلم من المال والصناعات والحروب الاستعمارية وتقديس التقاليد ، فكانت ثورة الأدباء صرخة من الأعماق ضد هذه المطامع والمظالم والمفارقات فى الحياة الاجتماعية وسيادة بعض الطبقات القليلة على معظم الطبقات الأخرى ، وسيادة المظالم باسم العلم الحديث وهو علم مادى هدم المعتقدات وقضى على العواطف وخلق أسباباً جديدة للتفاوت بين البشر وبين الطبقات الانسانية الاجتماعية ، وأن ذلك العلم بكل قوته وأسلحته وأمواله المغتصبة وذلك النهم الذى لايشبع صاحبه والمطامع التى لا حد لها، لم تُغْنِ الانسان شيئا ولم تُغْنِ الروح بل تركت الروح الإنسانية فى حالة قحط وظمأ وجدب بلغت غاية اليأس والقنوط ، فنظم جيمس تومسن ديوان « المدينة ذات الظلام المرعب » فأحدثت فى سنة ١٨٧٩ دوياً مهولاً ، وأعقبها كتاب « هل الحياة جديرة بأن تعاش » بقلم و.هـ . ملك .

وكان فتز جيرولد قد فرغ من نظم رباعيات الخيام

بالانجليزية ، فلفت الأنظار اليه والى تلك المسائل الروحية المعنوية الأزلية التى عالجها الشرق من قديم.

فصار سوينبرن مركز الدائرة وهدف المنافقين واتخذه كثير من الكتاب السخفاء الذين لا شأن لهم وسيلة للدفاع عن الفضيلة ليشتهروا على حسابه ، فكان رده القاطع الحاسم فى مجلة «هوتن» حيث قال الحجة الكبرى التى يعتمد عليها هؤلاء النقاد ، هى أن يسألوك هل يجوز أن تقرأ أم لبنتها العذراء هذا الكتاب أو تلك القصيدة بصوت عال دون أن يعتريها أو يعتريهما الخجل ؟ فإن أجبت سلباً ، فقد وقعت فى فريق المنبوذين أعداء الفضيلة وأنصار الرذيلة ، وهذه حيلة دنيئة من هؤلاء النقاد الدجالين يقصد منها الى تهديد الكتاب والشعراء بالأوهام والإرهاب والتخويف ليرغموا على العمل والإنتاج بقيود معينة وشروط خاضعة لرغبات هؤلاء النقاد ، وغايتها فى النهاية كبح جماح العقل البشرى وإخضاع الكتاب والشعراء لنُظُم الاستغلال المادى .

والمفاد من هذا العرض الوجيز لتلك المسألة أنها لم تثر فى عهد جويس وحده بل إنها نغمة قديمة دقوها على طنبور بال ودف مخروق ، ووقعوا بها على عود تمزقت أوتاره ، وصفقوا بأصناج

محطمة صماء قد تسمع ولكنها لاتطرب .

وزاد نصيب جويس من ذلك البلاء ، أنه إرلندى من أمة مغلوبة على أمرها ، وثائرة على ظالميها ، وأنه كاثوليكى مرتد وأنه فقير لا جاه له ، وليس حوله شرذمة من المعلقين والأتباع وأنه هاجر من وطنه فى عنفوان شبابه وألف كتابه فى الغربة وعاش فى زمن تطاحنت فيه المبادىء والمذاهب ، وكاد القديم أن يلفظ آخر أنفاسه ، ولكن مازالت بعض الدول الظالمة متحكمة فى أقدار العالم ، متخذة الغدر والخداع والدسائس وسيلة وسلاحاً لها وعلى رأسها انجلترا العجوز البالية الفانية التى لاتريد أن تلقى بسلاحها المغلول من يديها المرتجفتين ، فتجمعت كل هذه المصائب على رأس جويس فى أوائل العقد الثالث من القرن العشرين ، ولكنه لم يبال بها وصمد لها وتغلب فى النهاية عليها ، وجاء حكم المحاكم الأمريكية فى سنة ١٩٣٣ قاطعاً لهذه الألسن ، وواضعاً حداً حاسماً للمؤامرة السوداء التى كانت غايتها حرمان جويس من ثمرات جهوده واستغلال كتابه تحت ستار مصادرته فى أقطار العالم بأيدى أشخاص اتخذوا قانون المصادرة وسيلة من ناحية ، وعبثوا بقوانين حرية النشر من ناحية أخرى ، سواءاً فى بريطانيا ومستعمراتها أم فى الولايات

المتحدة .

ليس كتاب عولس قصة بالمعنى المعروف المتواطىء عليه ، لأنه ليس فيها مشكلة أو معضلة أو حيلة كالتى تتخذ عقدة للقصص يحلها المؤلف بالتدريج ، وليس فيها أعمال مادية وواقعات درامية كالتى تتخذ نسيجاً للقصة وهى نوع من الدوافع والحوافز التى تحرك الأشخاص Action ، وليس فيها غموض ولا خفاء ولا سر يراد اكتشافه ، كما يتخذ فى القصص الذى غايته كشف الجرائم أو رفع الستار عن أسرار حياة البطولة ، وليس فيها موضوع غرامى سداه العشق ولحمته الهيام بين بطل وفتاة أحلامه ، يقصدان الى الزواج ويبحثان عن السعادة الموهومة، وهذا سر قول النقاد الجاهلين أن ليس لها أول يعرف أو آخر يوصف ، لأن هذا الكتاب بمثابة مجرى نهر الحياة ، الذى ليس له أول ولا آخر ، لأن نهر الحياة ليس كأنهار الدنيا التى لها منبع ومصب ، وإنما هو تيار جارف أبدى ، ليس فيه توقف ولا غرق ولا شرق ، ولا مد ولا جزر ، ولاتكاد تستبين فى نهر الحياة أشخاصاً لهم أدوار معينة أو أقسام مقسومة ، وقد يكفى أن تسمع الاسم أو ترى الوجه أو تقرأ التلميح فتستعرض بذهنك حياة رجل بأكملها بل حياة رجال أو أمة ، وحتى

الشخصيات الممتازة فى الكتاب ، أمثال شخصية بلوم وزوجته ، وستيفن ديدالوس وبك موليجان ، وعشرات غيرهم ليس لهم أدوار معينة ولا أقسام مقسومة ، ولكن لهم دلالات على شخصياتهم وألوان تتكرر رؤيتها وعرضها على ألسنتهم وألسنة المتكلمين عنهم ، لأن قصد المؤلف هو إظهار الروح والنفس والعقل ، لا إظهار الشخصيات والأخلاق والطباع ، وإنما تأتى هذه الأشياء تبعاً للمقصد الأول الأسمى للمؤلف وخطته الموضوعة التى انطوت عليها نفسه ثم أخذ ينشرها تدريجاً.

وهذا دليل جديد على الفرق العظيم بين عولس لجويس وبين الأوديسة لهوميروس ، فإن أوديسة هوميروس قصة منظومة شعراً ولكن لها بداية ونهاية ، بدايتها انصراف بطلها يوليسيز من حرب طروادة ، ووسطها تيه هذا البطل البحّار فى طريق عودته الى وطنه، وختامها بلوغه هذا الوطن ووصوله مع ابنه تليماك سالماً وفرحه بلقاء زوجته بنلوب والانتقام من أعدائه . وفى هذه الملحمة واقعات وحوادث ومناظر تجثم على صدر القارىء وتقبض على خناقه وتضيق أنفاسه حتى يصل الى نهايتها ، كأنها قصة جنائية غامضة يراد الوقوف على سرها ، أو سرد أسرار خطيرة يرفع الستار عنها

تدريجاً ، مثل جزيرة سيرسيه ومنظر هاديس ، وما وقع فيه الأب والابن من الأخطار ووسائل نجاتهما ، فضلا عن الهدف الإنسانى Interest Human الذى يتجلى فى الملحمة الإغريقية ، وهو بحث ابن شجاع عن أبيه ، ووفاء زوجة فاضلة لزوجها وبيتها ، ثم اتخاذ عولس من دهائه وفطنته أسلحة لمحاربة أعدائه والتغلب على مايصادفه من المصاعب ، وحيلة الزوجة (تلك التى نقضت غزلها) لمطاولة الطامعين فى زواجها ومماطلتهم .

كل هذه العناصر القصصية التى استمر المؤلف الناظم فى سردها عشر سنوات تدل على أن ملحمة هومير قصة سافرة صيغت تبعاً لقواعد الفن القصصى، ولكن ليس هكذا عولس التى كتبها جويس ، ولم يكن مقلداً ولا سارقاً ولا ناسجاً على منوال هومير ، لأن الفرق الجوهرى بين كتابه وكتاب هومير ، أن حوادث كتاب هومير تتم فى عشر سنوات ، وحوادث كتاب جويس تتم فى ثمانى عشرة ساعة ، أى فى أقل من يوم واحد .

وحوادث الأوديسه تقع فى جزر لا عدد لها وشواطىء بحار وأدغال وعالم غير أرضى لا ندرى إن كان نعيما أم جحيماً ، وهو هاديس ، أما موطن عولس لجويس فهو مدينة دبلن ، بعض

شوارعها وبعض مساكنها وشواطئها ، وحى واحد من أحيائها وهى مدينة عصرية ، وتاريخ يوم محدد بالساعة والشهر والفصل، وليس فيها استعانة بقوة خفية أو سرية أو سحرية ، كما هى الحال فى كتاب هومير، فقد كانت الأرواح والملائكة وبعض الأرباب عوناً له ولابنه ، وهذا باب لم يكن فى طاقة جويس أن يطرقه فى القرن العشرين فى بلاد تقدس المادة وتنكر الأديان وتجحد ما وراء الطبيعة ولا تسلم إلا بمظاهر الحياة الدنيا ولا تؤمن بالروح وحيرتها بين الخير والشر ، وتتخذ القوة وسيلة لهضم الحقوق ، وتتبع الأهواء وتعبد المال ، وتسترق الأفراد والجماعات ، فوجب على جيمس جويس أن تكون ملحمته مطابقة هذه العناصر والحقائق والمنازع والأغراض ليكون ابن دهره وكتابه كتاب زمانه .

وبينما كان هومير يتخذ من الأساطير أو الأخيلة أو الخرافات أشخاصاً يحركهم وينطقهم بما يشاء ، كان جويس مضطراً أن يحضر الى الوجود الأدبى أشخاصاً من المعاصرين المعروفين حتى بأسمائهم وألقابهم وأوصافهم وتاريخهم ، وأن يدمج بضعة أفراد فى شخص واحد ليكون علماً على حالة نفسية أو خلق شائع أو عيب وراثى أو رذيلة بغيضة ، وأن يضع جميع هؤلاء – وهم يعدون

بالعشرات – فى إطار متقن محبوك الأطراف .

وإذن ماذا تكون تلك الملحمة ؟ الملحمة الجويسية تسجيل هرقلى – أى بالغ القوة فى العمل والقصد والنفاذ – للحياة الواقعية فى العصر الحديث على صورة تمثل العصر وأهله بصفة نهائية ، لاينقصها شىء ولا تحتاج الى تمام بعد الذى أراده المؤلف ، وهى بصورة موضوعية (Objective) لا علاقة للمؤلف بها ، ومستقلة عن تأثيره كل الاستقلال ، ولا يروى فيها شيئاً من أخباره ، ولا يصف عنصراً من عناصر أخلاقه ، ولا يسخر مادتها لوصف حياته ، ولا يفرض على نفسه أو على القراء فرضاً ليستمعوا الى أحزانه وأفراحه ، كما فعل كتاب القرنين التاسع عشر والعشرين ماعدا قلة متمايزة منهم أمثال زولا وبلزاك وفلوبير .

بدأ جويس يفكر فى كتابه فى سنة ١٩٠٦ وبدأ يكتبه فى سنة ١٩١٤ وانتهى منه فى سنة ١٩٢١ ، ولكنه مع ذلك لم يذكر فيه تلك الحرب التى عاش أثناءها وقبلها وبعدها بعيداً عن وطنه ، وما ذلك إلا خضوعاً لقانون الفن ومطابقة أدبه للواقع ، فإن كتابه جعل لتسجيل وتخليد يوم الخميس ١٦ يونيه سنة ١٩٠٤ فى مدينة دبلن من الساعة الثامنة صباحاً الى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ،

ولم تكن حوادث هذا اليوم وحدها كافية لملأ ٧٠٠ صفحة ، ولكن أضيف إليها ذكريات وواقعات سابقة وشخصيات معاصرة وأخبار وواقعات وأسفار وآراء وعواطف وتواريخ ونضال وكفاح وكلها مستخرجة من الحياة الواقعية التى توصف حيناً على ماهى عليه ، وحيناً تبلغ درجة التسامى ، ويحافظ المؤلف على استقلال كتابه استقلالاً مطلقاً فلا يتدخل فيه ولا يحول تياراته ولا يؤثر فى أشخاصه ولا يندمج مع بعضهم حتى يصير عملاً قائماً بذاته .

ويزيد فى قدر الكتاب أن مؤلفه عانى وضعه وهو يئن تحت أثقال لايعرفها إلا من كابد أمثالها وقد أشرنا الى بعضها ، فلا ضرورة للرجوع إليها ، إنما نقول إن كل تلك المتاعب – دموع العين وعرق الجبين ودماء القلب – كانت كلها بمثابة أشواك الورد التى أعانت وساعدت على ازدهاره .

ولم يكن جويس فى وقت من أوقات حياته من التاسعة التى أدرك فيها حقيقة الحياة كما أسلفنا الى الستين التى قضى فيها نحبه – عليل الجسم أو سقيم الروح أو مختل المشاعر أو مريضاً بأى داء عضوى عضال ، فيما عدا عينيه وأضراسه ، وهذه لا تخل توازن العقل ، ولم يعرف عنه من العيوب الخلقية شىء كما يعرف

عن كثير من الشعراء والمؤلفين أكثر من أنه كان يدخن ويتحدث على الطعام ، وقد تزوج مبكراً ، ويغنى ويرقص أغانى وطنه ورقص أهل عصره ، ويشرب على المائدة نوعاً من النبيذ الأبيض الخفيف الأثر ، ولم يكن منغمساً فى رذيلة من الرذائل كالمخدرات أو المقامرة ، وإنما كان استمتاعه بتلك الملذات المباحة البريئة وإفراطه حيناً فى الغناء أو التدخين من قبيل الترفيه والتسرية عن النفس ، وهذه أبواب للهرب الذهنى تعدها الطبيعة للنوابغ لينجوا من الجنون أو الانتحار السريع أو البطىء أو الوقوع فى مخالب الأمراض المزمنة ، كما كان مرحاً طروباً ميالاً للمجون ، وهذه بمثابة صمامات الأمان عند أمثاله ، كما كان المرحوم أحمد فارس الشدياق ، ولكن على مرح جويس وعبثه البرىء فى حياته الخاصة ، فإنك لاتجد أثراً من ذلك فى كتابه ، فإنه الجد كل الجد ، والوقار والحزن المكتم ، والقضاء والقدر الجاثمان على صدر الانسان ، والأحداث التى تتربص به ، والمجهول الذى يتهدده ، والأمر الواقع الذى يضطر للخضوع له ، فلم يتسرب من خلق جويس شعاع الى كتابه ، ولم تنشع نقطة من مزاجه الى عدله ، وهذه قدرة فى الأخلاق تفوق بها على الكثرة الساحقة من الكتاب والشعراء وأهل الفنون أمثال

أسلافه بودلير وفرلين وبروست ورابليه وغيرهم .

سألوا لماذا اتخذ جويس شخصية ليوبولد بلوم بطلاً لكتابه ، مع أنه أشد الأبطال خيبة وأقل الرجال ذكورة وأضعف الناس نكاية وأكثرهم استسلاماً لإرادة زوجته المرنولة ماريون بلوم وهى امرأة ثقيلة الوزن ، ثقيلة الظل مظلمة الروح ، فارغة القلب والعقل ؟

قيل لأن بلوم يهودى ، واليهود رمز للارتحال والتنقل من حال الى حال والطمع فيما بين أيدى الناس والشح والمتاجرة بالنساء وتحليل الإباحية فى المجتمع والتحرر من قيود الفضيلة والارتماء فى أحضان سواها ، ولذا وقع اختيار جويس على هذا النغل ليكون بطلاً أى ليكون أكثر الناس ذكراً وكلاماً وواقعات فى الكتاب، لا لأنه يمثل اليهودى التائه أو اليهودى المستعمر أو الدساس أو الجاسوس أو الخائن ، بل لأنه يمثل العصر الحديث ، ولذا كانت شخصيته مزيجاً من شخصيات شتى ، ولم يراع جويس أحاسيس رجال ونساء من اليهود أعانوه وخدموه فى غربته ، مثل عزرا باوند وغيره، ولكن هؤلاء كانوا يهوداً متحررين من قيود ملتهم ، كما كان ليوبولد بلوم نفسه فلم يكن لا هو ولا أحد منهم متمسكاً بالعقيدة الإسرائيلية أو بشعائر الملة .

ولكن عشرات الأشخاص الذين حشدهم جويس فى كتابه ، كثير منهم يعرفون بأسمائهم ، وكثير منهم معروفون ، ويرمز إليهم بأسماء مصطنعة ، وكثير أخرون خلقهم جويس وأبدعهم وخلع عليهم ماينطبق على الأخلاق التى يريد أن يكونوا أعلاماً عليها .

ومعظم شخصيات الملحمة جمعهم جويس فى المسرحية ليكونوا بمثابة أشخاص فى استعراض ، فإن تلك المسرحية التى أشرنا إليها إشارة عابرة ، تقع حوادثها ويدور حوارها ليلاً فى نايت تون بدبلن من قبل نصف الليل الى الساعة الثانية صباحاً «وحدة الزمان والمكان والعمل والأشخاص » .

ومما يلفت النظر فيها ، وصف المناظر وحالة الأشخاص الناطقين والمتحركين بإرادة المؤلف ، وهو قسم مهم من التأليف بجانب الحوار ، وفى تلك المسرحية التى يعد إنجازها إعجازاً فنياً وأدبياً ، جمع جويس المسرات والرذائل والغباء والغفلة ، ورجال الشرطة والجواسيس والبغاء والسكارى والسياسة ، وبعض العظماء والمشاهير والأرواح وملائكة الرحمة وشياطين العذاب والغيرة ، والديوثين والقوادين ، والمتسولين والمحاكم والمحلفين والموتى والأيامى واليتامى والذكريات المجسمة والمعاصرة الناطقة ، وعقوبة

المذنبين والاقتصاص منهم وتأنيب الضمير ، والحقيقة والخيال ، والشعر والفلسفة والتاريخ .

وبالجملة جعل من هذه البؤرة صورة مصغرة لمهازل الدنيا ومآسيها ، فهى كوميديا إنسانية من نوع جديد ابتكره هذا الرجل وصاغه وأبدعه فى مئة وستين صفحة ويقصر البيان عن الإلمام ببيانها ، ولكن كل المواهب الفنية والأدبية قد واتت صاحبها على نسق واحد ونظام واحد وإنتاج مدهش حتى أن قارئها لتعروه لذة أثناء تلاوتها وأثناء إعادتها تحل محلها هزة طرب ودهشة عند تذكرها مهما طال الزمن على التلاوة الأولى ، فهى عمل خالد ووقفة فى تاريخ الفن تلفت الدهر إليها .

وأول مايدهش القارىء خلق الجو الملائم للمسرحية أو إيجاد اللون المحلى وهو تعبير ضئيل للإلمام بالفكرة ، فهناك ظلام وأشخاص مرضى ، وإبهام وقمامات فى الطرق ، وأشباح ومقعدون زمنى ، وأصوات رهيبة ، وأنات وهنات ، وصرخات وأشعة مظلمة ، وضباب وموسيقى حزينة ، وصيحات البغايا ، وسعال المرضى ، وعربدة السكارى ، وتدخل الشرطة ، وطلاب الطب وعلماء الروحيات .

ويبدو بلوم ، وهو مركز الدائرة وقطب القصة التى تتضاءل حيالها أعجب أشرطة السينما الناطقة والصامتة وأغربها ، يبدو بلوم جانساً خلال تلك البقعة النجسة وهو يترنح من الشراب ، ويدركه شبح أبيه المتوفى (رودلف) ، فيعاتبه ويؤنبه على سوء مسلكه، ويخيل السكر لبلوم أنه يرى أشباحاً - أشباح جرتى إحدى معشوقاته ، وزوجته وأباه وأمه ، وهو يفطن الى أن قدميه حملتاه الى موطن المعصية ومقرها ، وتبدو له مسز برين (معشوقته الأخرى) ، وتتحدث إليه طويلا عن زوجته .

وقد اتخذ المؤلف طريقة لتغير الشخصيات تبعاً لتغير الحوادث المسرحية وطروئها وهو تغيير الملابس ، وقد جعل جويس نثر المسرحية وهو من أعلى ماكتب ممتزجاً بنوع جديد من الشعر على طريقة الأغانى ، وجعل حديثاً ناطقاً على ألسنة الكلاب ، فإن مثل هذه المواطن لا تخلو من الكلاب الضالة المسعورة والعقورة والعضاضة والكلبة سواء أكانت من الحيوان أو من البشر ، وأضاف الى الشرطة حراس الليل ، وهم رقباء الآداب العامة وحفظة الأمن فى ذلك المكان .

وأول تغيير يطرأ على بلوم أنه يصير فون بلوم باشا ، وأظن

أن أحد اليهود نال هذا اللقب وأعدم بعد المحاكمة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ثم يتولى بلوم الدفاع عن نفسه بوصفه جندياً محارباً ، ثم توجه اليه بعض النساء تهمة الاعتداء عليهن بفعل فاضح ، فيسوقه الحراس والشرطة الى مكان المحاكمة ، ويهاجمه بوفواه أو بيور فواه ويهدم دفاعه من أساسه ، وتتهمه خادمته «ديسكول» وتؤدى شهادة إثبات ضده ، فيدافع عن نفسه وينبرى محام للمرافعة عنه ، فيذكر أنه مريض العقل والجسم وأنه غير مسئول بسبب جنسه وصناعته ، فتنتدب المحكمة طبيباً شرعياً لفحصه ، فيقدم تقريره ضده ، وتتعاقب النساء على اتهامه ، فيصدر حكم المحكمة بإعدامه ، ويوصف بأنه يهوذا الأسخريوطى ، ويتقدم الشرطى رمبولد، وقد صار جلاداً لقطع رقبته ، وتطلب المحكمة شاهد نفى ، فيظهر شبح بادى دنجام ، دفين اليوم ويقرر أن بلوم كان يشيع جنازته وأنه ليس كما زعم شهود الإثبات من مقترفى الجرائم بالديناميت أو متجراً بالرقيق الأبيض ، ويؤيد الشبح فى شهادته شخص حارس القبور الذى شاهد بلوم فى القرافة أو المقبرة عصر هذا النهار ، ثم تبدو « زو » وهى فى صورة ظبى أو ظبية وتغازله وتستدرجه ، ويظهر ولتر رالى عشيق الملكة

اليزابث ، وقد جلب معه البطاطس والطباق من أمريكا ، ويكون ظهور هذا الشخص بداية تبدل حظ بلوم ، فينتخب رئيسا لبلدية دبلن ويتحمس له الشعب ويعتبرونه منقذ الوطن ، بل مصلح العالم بل زعيم الانسانية ، ثم يتوجونه ملكاً ، فيطلق امرأته ويختار لنفسه وزيراً ، وينقلب عليه الشعب ، فيتملقهم ويرشوهم بالمال والذهب والهدايا ، فينشقون عليه ، ويصيرون أحزابا ، وتحترق مدينة دبلن ، ويقتص بلوم من خصومه ، فيقتلهم ويوصف عهده بأنه العهد الفردوسى .

ويجن النساء حبّابه حتى ينتحرن تحت أقدامه ، ثم ينقلب بلوم امرأة ويلد ثمانية أولاد ذكور ، ويعينون فى أعلى المناصب ، ثم يأتى بالمعجزات ويصير نبى دهره ورسول عصره وتصطنع له الأنساب حتى يصلوا به الى الأنبياء الأقدمين ، ثم ينتهى حلم حياته وتستدرجه « زو » (الغزال أو الظبى) الى غرفة الموسيقى ، ثم يظهر المسيخ الدجال ، وتنتهى الدنيا ، ويأتى النبى اليجاه Elijeh ويتكلم ويتلوه فيراج ، ويصف نفسه بأنه الكاشف عن أسرار الرهبان والناشر لفضائحهم والمنقذ للعذارى من كنيسة روما ، ثم تتكلم الماديات بعد الأشباح ، فتنطق المروحة ، وتظهر بلا كوهين زعيمة

البغاء فى عصرها ولها حوافر فرس أو حمار ، ثم تنقلب رجلا وتتخذ اسم « بلو » وتغير ثيابها ، وتظهر بمظهر الوحشية فى الطعام والشراب والكلام ، فينقلب بلوم امرأة ويزحف على بطنه ، ويبكى ويفر من بين يديها ، وهى أى بلا كوهين التى صارت « بلو » تحتم أن تضع على ظهره سرجاً أو بردعة لتركبه، ويرى بلوم فى تجسده الجديد بصفته امرأة سائر معاصيه السالفة ومعايب أخلاقه.

وتبدو كل من « زو » و« كتى » و« فلرى» « خاضعات مطيعات لبلو » وهذا القسم من المسرحية الذى دعى بعض النقاد الى تشبيه هذه الفئة من النساء فى بيتهن فى جزيرة سيرسيه ، ولو أن سيرسيه الأصيلة لم تأمر رجالها الذين سخطتهم حلاليف أن يخضعوا لمعصية سدوم وعمورة ، كما فعلت بلاكوهين بعد أن صارت رجلا » ، ثم يرى بلوم ماضيه الكريه مع النساء ، وهذا نوع من العذاب [1] ينوقه عن يد « بلا » التى تتقاضاه ثمن الذنوب فى

---

(١) هذه الفكرة قد انتحلها كتاب الفلسفة الوجودية فى سنة ١٩٤٥ فى كتبهم وقصصهم ولا سيمامسرحية « الجدار » .

شبابه ، وهو عذاب أليم ، ومايزال بلو « الرجل المتقمص » يعذب بلوم حتى يقتله فتذهب روحه الى كوكب آخر غير الأرض ، فتتلقاه بنات الغاب « نمف » ، وتطن فى آذانه أصوات النساء من بيت بلا كوهين وتظهر أشباحهن ثم يدخل عليه « لينش » وقد تحول بلوم فى تلك الحياة الآخرة ديوثاً لبويلن عشيق امرأته ماريون بلوم .

ثم يتلو منظر لم يسبق له مثيل فى أى أدب عالمى مستور أو مكشوف إلا فيما يلمحه القارىء فيما كتبه بيير لويس تقليداً للشعر الإغريقى القديم ، ولا سيما أدب سافو ، ولم يبلغ الانحطاط الخلقى فى الجسد والروح ما بلغه من ليوبولد بلوم ، ولم يبلغ كاتب من النثر والشعر ما بلغه جيمس جويس ، ولكن قدرة الكاتب الناثر ، وجمال التعبير يتغلبان على ثورة القارىء وهذا نادر ، وقد يكون جيمس جويس قد انفرد به دون كتاب العالم ، ويكون القارىء قد وصل الى حالة من السكر الحلال تنسيه كل اعتبار سوى الإعجاب بهذا الجبار الذى أوتى إعجازاً وقدرة فى البلاغة خارقة ، وهذا فى نظرنا ما حدا القاضى الأمريكى جون ولزى الذى أصدر حكمه فى عام ١٩٣٣ بأن ماورد فى الكتاب من الخواطر لا يؤثر فى أخلاق الشخص بل يزيده تقديراً للأدب والفن فتحدث معركة طاحنة بين

الإعجاب بالكاتب وبين النفور من بعض ماكتب ، وهو نفور منشأه الدهشة والذعر الروحى وينتهى الأمر بزوال الملامة وبقاء الإعجاب ، ولذا فإن النقاد الكاشحين يعذرون إذا هو لم يتحملوا بلاء تلك المعركة ، وتوهموا جمهور القراء الذين لايتحملونها لأنها جرعة قوية من الدواء الذى يمازجه السم الزعاف وأثره يتبع بنية القارىء وقوة تحمله ومناعته ومقاومته .

نرجع الى المسألة الأولى وهى أن هذا الكتاب لم يجعل لكل قارىء وقارئة ، وليس مقرراً للمطالعة أو الدرس لتلاميذ المدارس أو فتيات التطريز أو التدبير المنزلى، وانما هو موضوع لفحول القراء لإتمام تعليمهم واطلاعهم على نواح من الآداب لم يطلعوا عليها ، كما كانت بعض أوبرات فاجنر مسابقة بين فطاحل الموسيقى ، يأتى كل منهم فيها بالمعجب والمطرب .

ولذا فإن قراء من هذا القبيل الذين تشبه أذهانهم معدة النعامة تهضم الصخر والحديد وتأكل الحجر النارى والفولاذ المحمى وتستسيغها أمثال أرنولد بنيت و هـ . ج . ولز وأزرا باوند وسيموندز وهم ذوو الأقدار الحقة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وعلى طرازهم مارسيل بروست وأندريه

جيد وتوماس مان فلم تأخذهم رعدة الحياء ولا نعرة الدفاع عن الفضيلة ، لأن للفضيلة أسلوباً بل أساليب أخرى غير أسلوب الأدب والفن .

وفى نظرنا أن كل أدب عال ، يغذى الروح ويرفع العقل ويفسح فى آفاق الذهن ، وهذا الكتاب من الأدب العالى إن لم يكن أعلاه .

ولسنا بحاجة لأن نقول فى مجال الدفاع عنه « لا حياء فى العلم ولا حياء فى الدين ولا حياء فى الأدب والفن » ، ولاسيما أن كبار الكتاب القدامى من العرب لم يتبرقعوا ولم يتقنعوا ولم يتشبهوا بالنساء عند الكتابة ، والأمثال حاضرة فى نثر الجاحظ ، وفى كتاب الأغانى وفى شعر أبى نواس وابن الرومى ، وقد حذف المحدثون قصيدة « لم ينصف الناس ضبه » من ديوان المتنبى ، وهذا ليس من حقهم ، ثم إن الحذف لم يمنعه من أنه نظمها وأنشدها ورواها عنه الرواة ، كذلك الأسفار المحذوفة من التوراة مطبوعة على حدة ، يقرأها كل من يبذل فى ثمنها دراهم معدودة .

وقد تمكن المنافقون والمتفيهقون من القبض على أوسكار وايلد وحاكموه باختياره ، لأن فرصة الفرار كانت سانحة له ولكنه أبى أن

يفر من مواجهة القضاء الإنجليزى ، وهو غريب عنه بجنسه الايرلندى وعقيدته الكاثوليكية ، ثم إن عمله لا يقل عن عمل سقراط إذ عرضوا عليه الهرب وأعدوا له وسائله فأبى ، ولا فرق بين الحكم الظالم الذى صدر فى أثينا قبل المسيح على الفيلسوف الحر الذى اتهموه بإفساد عقول الشباب ، وبين الحكم الذى صدر فى لندن بعد المسيح بتسعة عشر قرناً ، وقد حاسبوا الكاتب على فعل نسبوه اليه ولم يحاسبوه على ما كتب .

وإن البدن ليقشعر من العقوبة التى وقعت لأوسكار وايلد وكانت سبباً فى القضاء على حياته ، ويقشعر مرة ثانية إذا فكر فيما كان يصيب جيمس جويس لو أن الأقدار القاسية ألقت به فى براثن هؤلاء المتعصبين الطغاة القساة الغلاظ ، ولكن الدرس كان حاضراً فى ذهنه ، فقد فر من بلادهم وبلاد بلادهم وبلاد بلاد بلادهم ، وكان بمنأى عنهم ، فلا تمتد اليه يدهم أبداً مهما طالت ، ولا يحيق به مكرهم مهما كان سيئاً ، كان الدرس حاضراً فى ذهنه وكان جويس عاقلاً حذوراً فاتعظ بما حدث لغيره ، فهرب مبكراً ، واتخذ وطناً غير وطنهم وأرضاً غير أرضهم، وتمكن أن يقول مايشاء وفوق مايشاء ، فليندب العاجزون عن الهجرة حظوظهم .

لو ظفر الطغاة بجيمس جويس حياً لشووه شيّاً على السفود، ولسلخوا جلده كما سلخ المتعصبون جلود الشهداء ، دع عنك الصلب وتقطيع الأوصال والإحراق وتذرية الرماد فى الرياح باسم الفضيلة والدين والدفاع عن آداب المجتمع .

إن هذا الكاتب الكبير سجل على ورق مساوىء العصر الحديث ، ورد الى القوم بضاعتهم ، ليروا بأنفسهم مقدار الكراهية والغثيان والصغار التى تصيبهم عند رؤيتها بل رؤية صورتها ، كمن يربط القاتل الى جثة المقتول ويكتفى بهذا العقاب عن القصاص ، ربط جويس معاصى العصر فى أعناق أبناء العصر فشموا رائحتها، وذاقوا مرارتها وتعذبوا بالنظر إليها ، فثاروا على الكاتب، وهو لم يفعل شيئاً أكثر من أن قال لهم : هذه أعمالكم وأقوالكم وأداؤكم . فأسدى اليهم جميلا ولكنهم لم يبلغوا الرشد العقلى ليقدروا هذا الجميل الذى أسدى ، ولو شاء جويس أن يبذل جهوده وأدبه وفنه فى كتاب فى الوعظ والإرشاد والدعوة السافرة للفضيلة لألهوه وعبدوه ، ولكن الذى يؤله ويعبد أفراد قلائل ، هم الذين احترفوا القراءة والحكم على الكتب وهم يعلمون أن الوعظ والإرشاد فى هذا الزمن يولد ميتاً ، ولكن جويس اختار ما يصلح للزمن وينفع

الناس ويرقى الأذهان ويخدم الخاصة ، ولم يكتب للعامة والدهماء والسواد الأعظم ، فإنهم لايفهمونه ولا يعون أدبه ولا يقدرونه، ولم يكن هذا الاختيار كله من صنع جويس ، بل فيه نصيب دفعته اليه الوراثة والوطن والجنس واللغة والمواهب وظروف الحياة وسير الحوادث وهذه كلها عناصر أصيلة فى تكوين الشخصية .

وهذا القسم الأخير أورده فى المسرحية عند استحضار شبح والده وذكر وفاة أمه بالسرطان ووصف موتها وآلامها ، وحياة الطلاب بباريس ، وقد عاش بينهم ردحاً من الزمن ، وحياة الطلاب ولا سيما طلاب الطب فى كارتييه لاتان ، وكانت فترة من أسوأ فترات حياته وأسودها، حياة تركت في نفسه جرحاً لا يلتئم ، وأذكرتنا بقول سترن وهو ينظر الى سجين فى الباستيل « رأيت الحديد يخترق روحه » .

ويمزج جويس تلك الذكريات بندم الابن على عصيان إرادة الأم ورفض توسلها إذ طلبت اليه وهى فى حشرجة الموت أن يركع بجانبها ويصلى لروحها ، وفى وسط هذه المعمعة يتكلم أصحاب التيجان ، ويعود « كار » الشرطى البغيض ويتجلى بجهله وسوء فهمه ، وتحترق دبلين حريقاً ثانياً كما حرقت رومة أو قرطاجنة كأن

قلب المؤلف، لا يرتاح وباله لايهدأ إلا إذا رأى النار تلتهم الظلم والظالم والمظلوم . ويعتدى « كار » رجل الشرطة على « ستيفن ديدالوس » بالطعن واللكم ليسكت لسانه ويخنق حريته ويقتل فكره ، وهو رمز مفهوم مادام بين ذى سلطان انجليزى وشخصية من شعب مظلوم ، أو مغلوب على أمره .

وقد رأينا فى موضع آخر كيف تنهى هذه المسرحية بنهاية الهذيان الفكرى الذى أصاب ليوبولد بلوم نتيجة الخمر ، حتى يرى شبح الطفل رودى فى رؤيا خاطفة من صنع خياله العليل .

وبعد إفاقته تستمر الحوادث ، ويرجع المؤلف الى ما انقطع ، كأن المسرحية نزوة عقلية اعترضت سياق الكتاب ، هكذا يبدو فى ظاهر الأمر ولكن الحقيقة أن المسرحية أسلوب فذ لم يكن غيره يصلح للتعبير عن فكر المؤلف وإرادته .

(١٢)

خاتمـــــة

قال جويس فى خطابه الى أخيه المؤرخ ١٩٠٦/٩/٣٠ عن ليوبولد بلوم إن أصله « مستر هنتر » من أهل دبلن ، ولكنه ليس وحده الذى احتاج اليه جويس لتكوين تلك الشخصية العجيبة ، وقد أشرك معه جويس رجلين آخرين فتكون تلك الشخصية مكونة من :

(١) هنتر الايرلندى من دبلن

(٢) رجل إغريقى عرفه فى تريستا

(٣) رجل مجرى عاشره فى زوريخ

ويضاف الى هؤلاء ايتور شميتز الذى سيأتى ذكره .

ونصيب هنتر أن يمثل الايرلندى المتوسط الحال أثناء حياته ، وطوافه طوال اليوم بمدينة دبلين ، وخواطره وشهواته وأحاديثه وواقعاته مع أصدقائه وتسجيل تأملاته ومشاعره ، وهذه أمور بالطبع لايقدر عليها إلا رجل ايرلندى صميم يعرف البلد وأهلها وتاريخها وماضيها وحاضرها وسياستها واجتماعها ، فصار هذا

الجزء من الكتاب نصيب بلوم البطل فى القصة .

وسرد سياحته الخطرة ومقابلاته مع بنات البحر وبنات الغاب وبنات الهوى ورجال الأعمال ورجال الصحافة ، وغوصه للأعماق فى كل طبقة وكل دائرة وكل بيئة وخوضه غمار البحر المظلم والتقائه بالجبابرة العور والمردة من الإنس والجن ، وتملصه من المضايق وتغلبه على عواصف الحياة حتى صارت حياته فى تلك الفترة (١٦ يونيو ١٩٠٤) أسطورة وخرافة وتاريخاً للهائم على وجهه وسط المجتمع باحثاً عن هدوء البال ونعومة العيش فلا يجدهما ، ووسيلة للعثور على نفسه والتعرف بها ليتوجه توجيهاً صحيحاً وسط زوابع الزمن الفظيع الهاتك المهين .

ويبدو أن جويس كان معجباً بعولس بطل الأوديسة ، ذلك الإغريقى القديم الماكر الحاذق الذى خبل عقول أعدائه بخطط العقل التى غلبت خطط الحرب ، ولا مرجع لها إلا المنطق السليم وسعة الحيلة وحسن التدبير .

ولم تكن فكرة التشابه بين بطل كتابه وبين بطل الأوديسة بالأمر الذى يقبله جويس أو يقبل عليه ، ولكنها فكرة طرأت عليه أثناء نظره فى حالة نفسه أثناء إقامته فى رومة فكانت بذرة زرعها

العقل فنمت وازدهرت ، ولعلها فكرة كشفت لجويس عن خطته هو نفسه فى الحياة بسبب ضعفه حيال قوى خصومه والزمن .

وما أشبه تلك الفكرة التى غرست فى ذهن العبقرى بالحمل عند المرأة ! حمل أليم ، حضانة طويلة ، يتخللها طرح وإباء ورفض وامتعاض وانتظار مرير وصبر لحلول الروح فى الجنين ، يتلوها أوجاع المخاض وغمرات الوضع ، ثم يجىء الميلاد فيولد الطفل كاملا - هدية من الإله - ولكنه كمال لايمكن تحليله وتفسيره .

لقد حدث الحمل فى خريف سنة ١٩٠٦ ، واستمر خمس عشرة سنة ، وهى تلك الفترة قرأ جويس كتب الفلسفة والأدب القديم والحديث ، ومن الأدب الحديث مؤلفات « وايلد » و « جورج مور » (وهو ايرلندى) و « هويتمان » و « جيسنج » ولكن أفكار هذا الأخير فى الإشتراكية صدته عنه وحاول قراءة « أرثور موريسون » و«توماس هاردى» و «ثاكرى» ، ولم يفد شيئاً من القصة الإنجليزية.

وأعجب بأوروبا الحديثة من وضع « فيرورو » ، ومؤلفات موباسان ، ولكن عهد ادوارد السابع خنقه وضيق أنفاسه ، لأنه كان تكملة غير طبيعية لعهد فكتوريا الكئيب المحزن .

وكان فى كل مطالعاته ودراساته يبحث عن المؤلف المدرك الفاهم تمام الفهم الواعى تمام الوعى بحيث يستطيع أن ينقل لذهن القارىء الشيء المرغوب نقله على الوجه الأكمل والذى يستوفى صفة الانفعالات والأحاسيس فيما وراء المرئيات التى تلابس موقفاً من المواقف الإنسانية أو العالمية والكونية .

وشهد أثناء إقامته فى رومة المؤتمر الدولى الاشتراكى فلم يرقه وشعر بالبغض الشديد نحو كارل ماركس ، فأساء الظن بنفسه، وكذا اتجه لقراءة كتب الفلاسفة والمصلحين ذوى النزعة الاشتراكية ليصحح نظره فقرأ موست ومالاتستا وسترنر وباكونين وكروبوتكين وركلو وسبنسر ، ولم يقرأ من كتاب رأس المال لماركس إلا الجملة الأولى منه ثم تركه . ولكنه خرج من كل قراءاته مؤمناً بوحشية العالم المتحضر وقساوة المدنية المادية الحديثة وفظاعتها ومساوئها الظاهرة والخفية، واقتنع بظلام مستقبلها وسوء عاقبتها ، وأبغض السياسة لأنها متعبة ومضجرة وتدور حول مصالح المشتغلين بها ومنافع بعض الطبقات ، فهى لعبة خطرة تعود بالمصلحة على محترفيها ومتقنيها الذين شبههم بكبار المقامرين فى مونتكارلو يظهرون قفاز المخمل ويخفون الخناجر .

واشتاق الى دبلين وأحب أن يقف على أخبارها فجذبته المدينة، وشهد حركة « الشين فين » التى أسسها جريفيث ، فمال جويس الى جانبهم من سنة ١٩٠٥ لأنه اعتقد أنها حركة منتجة وقد صح تنبؤه واعتقاده فأتت هذه الحركة ثمرتها باستقلال ايرلندا فى سنة ١٩٢١ ، وما كان جريفيث يخشى شيئاً سوى خشيته وقوف الكنيسة فى سبيل حركته كما حاولت أن تقف فى وجه بارنل دفاعاً عن الحكم القائم وعن ملاك الأراضى .

ولكن جويس لم ينضم الى القائلين بإحياء اللغة الايرلندية القديمة وعلى رأسهم ييتس ، لأنه اعتقد أن إحياء لغة قديمة يعزل ايرلاندا عن العالم ، وكل هذه الخواطر التى ساورته فى روما مع بعده عن ايرلاندا سببت له القلق والاضطراب ، فشعر بالضياع والمنفى والضيق والحرج والكرب وألحت عليه الذكريات القديمة ، فبدأ يشعر أنه يعيش فى فضاء كفراغ الفاكوم .

ولما مثلت مسرحية « الفتى اللعوب فى غرب أوروبا » فى دبلن وفيها شبه مأساة - قتل الولد لوالده - تأثر لها وتأثرت لها كل ايرلندا ، وأثارت مشاعرهم ، وغضب النظارة فى دبلن لمنظر القبلة ولورود بعض ألفاظ ضد الدين ، فدفعه هذا الغضب المصطنع للدين

والفضيلة الى الإغراق فى مسرحيته « مدينة الظلام » نايت تاون .

وهذه المعركة الأدبية فى ايرلاندا بشأن حرية المسرح دفعته الى الهجرة من روما ، فعاد الى تريستا وعاد الى مدارس برلتز ليعلم الانجليزية للأفراد ، ولم يفاتح أحداً بدخيلة نفسه ، لأن المفاتحة تضعف الإرادة وتحل العزيمة ، كان يبغض الاشتغال بالتعليم فى سبيل الرزق ولكن لم تكن له وسيلة أخرى ، ولم يستصف أحداً غير الأديب « ايتور شميتز » الذى ألف كتابين ونشرهما باسم مستعار أحدهما « ايتالو سفيفو » ، فأظهر جويس نفسه لهذا الرجل وأقنعه بالعودة الى الأدب بعد اليأس ، وعثر جويس فى طبيعة شميتز الهادئة اللاصقة بالحقائق البعيدة عن العواطف على سند مادى مشهود لإكمال شخصية بلوم التى مازالت فى سديم عقله صورة مبهمة غامضة ولكنه لم يكن بعد قد اختار لبطل قصته اسم ليوبولد بلوم، ويمكن أن يُضم شميتز الى الشخصيات الثلاث التى كونته ، وهم هنتر الايرلندى والرجل اليونانى من أهل تريستا والمجرى الذى لقيه فى زوريخ .

وفى سنة ١٩٠٧ نشر جويس كتابه « موسيقى الحجرات » ، ولكنه خاب ولم يجد سوقاً نافقة ، فأعانه ارثور سيموندز الكاتب

الشهير مؤرخ عهد الإحياء ، فانبرى سيموندز لتقريظ الكتاب والدفاع عنه ، وكذلك أشاد بذكره صديقه القديم ورفيق صباه فى جامعة دبلن « توماس كيتل » ، فلما قرأ التقريظين رقص فى الشارع مع اثنين من سعاة البريد أثناء عاصفة مطر هوجاء فأصيب بحمى ولزم الفراش ، حمى الفرح ؟ أم حمى المطر ؟ .

وفى أغسطس سنة ١٩٠٩ سافر فى رحلة قصيرة الى دبلن ومعه زوجته وولداه بعد غيبة خمس سنين وجمع مالاً كثيراً ليقيم مشروع دار صور متحركة ، ولكنه فشل واحتالوا عليه وفقد ماله فغادروا ايرلاندا ومعه أخته هيلانه ، وتراكم عليه الغم والغضب واصطلح الفقر وسوء الطالع فخاصم أخاه ستانسلاوس لأهون الأسباب « وما أشبه هذا الأديب العظيم فى خيبته عندما طلب المال بالطرق المرذولة بسلفيه الصالحين بلزاك وولتر سكوت ! » .

وفى سنة ١٩١١ استأذن الملك جورج الخامس فى ذكر والده ادوارد السابع باسمه وسماته وصفاته فى قصة أهل دبلن ، فأجابه الملك بلسان كاتم أسراراه أن الملك لا يملك أن يبدى رأيه فى هذه المسألة بحكم الدستور ، فغضب من جديد واعتقد أنه فريسة مؤامرة كبرى من أعداء الحق والحرية ، وظن أن أبناء وطنه تواطؤا عليه

حتى أفقدوه مائة وخمسين ألف فرنك فى مشروع السينما ، فعاد ثانية الى دبلن بكل أفراد أسرته ، وبينما كان يجوس خلال القبور للموعظة أو لزيارة قبر أمه ، وجد قبراً عليه اسم J. Joyce وهو اسمه ولقبه ، وأعاد الكرة لنشر كتابه قصة أهل دبلن التى طالت واستمر من سنة ١٩٠٣ الى سنة ١٩١١ ، وحجة الناشرين أنهم ينشرون مخزيات الناس ولا يطبعون المعايب للقراء ، فزاد غيظه من القوم ، وكانت سنة ١٩١٣ من أسوأ الأعوام .

وفى سنة ١٩١٤ انتهى من صورة الفنان الشاب كما أسلفنا وبدأ كتاب عولس ، وبعد نشر هذا الكتاب الأول مد إزرا باوند يده لمعونته فى لندن فى غيبته ، وهو صديق عرفه فى باريس ، بدأ جويس يكتب عولس ويخرجه من حيز الفكر الى حيز العمل والتدوين، وكان فى تلك الفترة يعتقد أن كتب اليونان الأقدمين أعظم من هملت ودون كيشوت ودانتى وجوته ، وجذبه التصوف ، وقد خيب وطنه آماله فيه فاعتبر أوروبا والداً له « لا ليوبولد بلوم كما زعم الجهال » ، وإن كان هناك شبه بين كتابه وبين الكتاب اليونانى القديم ، فهو الأخلق بأن يكون عولس نفسه ، لا تليماك ابنه لأنه هو الذى كابد الأسفار وتحمل مشقات النفى والهجرة ، وقد صحبته تلك

الفكرة من سنة ١٩٠٦ ولم يبدأ بتنفيذها إلا سنة ١٩١٤ ، فإن كان هو عولس الحديث فدبلن وطنه هى محيط البحر الأبيض الذى تاه فيه عولس القديم .

وخطة عولس أن يكون كتاباً كونياً يطوى بين دفتيه كل شىء فى العالم ، أى أن يجمع الحياة فى كتاب ، كتاب يفسر الحياة فى العصر الحديث ، ولا سيما بعد أن رأى عمق الهوة التى تفصله عن قومه الذين نشأ فيهم ، هوة فى التفكير والشعور ، وقد يكون الرجال الذين أثروا فى ذهنه حقاً بعد الأقدمين ، إيبسن النورويجى وفيريرو الإيطالى ، وكلاهما يبغض العصر الحديث ويمقته ويطلب تحرير العقول والعواطف .

ومنذ أعلنت الحرب صار جويس أسير حرب فى تريستا ، ولكنه تمكن من الإفراج عن نفسه بكلمة الشرف ليذهب الى زوريخ ، فسافر اليها فى أول صيف ١٩١٥ ، ولكن زوريخ التى أعجب بها وأحبها فى أول هجرته أبغضها عند عودته إليها ، فقد كانت تعج بالغرباء واللاجئين والجواسيس والمشبوهين من كل دولة ، وأصبحت موطناً دولياً للعناصر المريبة من كل قطر ، وكان قد قطع شوطاً فى القسم الأول من كتابه فى تريستا ، فلما أراد دخول البلد اعترضه

رجال الجمارك وظنوا كتابه نوعاً جديداً من الشفرة السرية لغموضه وغرابة أسلوبه وجهلهم بالأدب والفن ولا سيما الجديد الطريف ، فواصل عمله فى كتابه فى زوريخ .

وكانت طريقة عمله أن يكتب مايعنّ له على قصاصات من الورق ، فى كل مكان وزمان من النهار أو الليل ، ويودع المكتوب جيوب ثيابه ، وكان يعمل على طريقة الشعراء ، فلا يضع على الورق إلا ما تمت صياغته فى ذهنه ، لم يكتب كالناثر بل كالناظم ، فلم يدون إلا ما فرغ من صبه فى القالب الملائم ، وكان بحثه غير مقصور على الألفاظ أو جرسها بقدر اهتمامه بواقعة أو كلمة أو سمات خلقية يضعها فى موضعها على لسان أشخاصه أو فى كلام عنهم ، ولا يتخلى أبداً عن أدوات عمله فعاش للكتاب وجعله طعامه وشرابه وشغله وتفكيره ، وأهمل كل ما عداه ولم يشتغل بشىء غيره، ولم يكن من السهل أن يكترث له أحد وهو فى الطور الأول من أطوار التنفيذ .

وقد جمعته مصادفات الأسفار ببعض الكتاب فى زوريخ ومنهم بلايبترو Bleibtru صاحب نظرية دوق رتلند « أى الذى قال إن هذا الدوق هو مؤلف المسرحيات المنسوبة الى شكسبير » ،

وشيكرليه الكاتب الألزاسى ، وستيفن زفايج الكاتب اليهودى المنتحر فى أمريكا الجنوبية أثناء الحرب العالمية الثانية وهو على قمة الشهرة ، ورومان رولاند المنفى من وطنه وغيرهم ممن يبغضون الحرب التى لم تنته الى نتيجة حاسمة ولم تعد على العالم بخير لعجز القادة عن الإدراك والمنطق ومجافاة روح العدل الإنسانى والحقوق والحريات التى كانوا يلوحون بها وفشل الهيئات الدولية التى عينوها للاحتكام .

واتصل به هـ. ج .ويلز وامتدح كتابه « صورة الفنان » ، والتقى بأغبياء وأدعياء ومتهوسين ودجالين ومحتالين وهواة تمثيل وهواة تأليف ومحترفين فى اقتناص الأموال واستغلال المواهب ، وأراد فريق منهم أن يستغل مواهبه ، وكان الجنس الرقيق أميل إليه والى معونته لجاذبيته فى شخصه .

ولم يخلص جويس نهائياً من هم الارتزاق بمهنة التعليم والتدريس إلا فى سنة ١٩١٧ ، أى بعد أن مارسها وعول عليها فى قوته وقوت أولاده ثلاث عشرة سنة، ولم يكن حب النساء إياه مقصوراً على اللواتى عرفنه فى ايرلاندا وأوربا ، بل امتدت تلك الجاذبية الى ما وراء المحيط ، وتطوعت سيدات وأبكار غنيات

وأديبات لمعونته فى نشر كتابه ومده بالمال ، وحاول أن يكون فرقة تمثيلية فى زوريخ من الهواة والهاويات ، فاحتكت به السلطة القنصلية من رجال الانجليز ، فأبغض منهم كار ورمبولد ومثل بهما فى كتابه وجعل منهما شرطيين غبيين وأحدهما جلاداً وحلاقاً .

وفى سنة ١٩٢٠ رحل جويس من زوريخ الى باريس وجميع أسرته فاستقبله إزرا باوند استقبالا حافلاً بالتكريم ، وكان قسم من كتابه قد نشر فى أمريكا ، ولم يكن الكتاب كله قد تم لأنه أنجزه سنة ١٩٢١ ، ولكن مانشر منه فى أمريكا أذاع صيته ونشر شهرته ورفع ذكره وألهج الألسنة باسمه وصار أسطورة أدبية فى الأدب العالمى وهو مايزال فى المهد ، صار كتاب جويس أسطورة وتقليداً ومنهجاً ونموذجاً ولغزاً .

كان جويس طويلاً نحيفاً أبيض الشعر وهو فى الأربعين من عمره وقوراً ، يضع على عينيه نظارة ، محباً للمرح وعطوفاً على أسرته وصديقاً وفياً ، وقد قاضاه فى أمريكا جورج سميز رئيس جمعية محاربة الرذيلة ، بسبب الأجزاء التى نشرت من كتابه فى الولايات المتحدة فى « المجلة الصغيرة » . وفى سنة ١٩٢١ حكم على صاحبتى المجلة بالغرامة وحكم بمصادرة الكتاب ، ومن هنا

بدأت مأساة المصادرة والإحراق فى أمريكا وبريطانيا ، ولم يبال جويس وكان أصحابه يصفونه فى هذه الفترة بأنه مزيج عجيب من وقار مؤدب ومرح خيالى ، أى أنه كان وقوراً طيب العشرة وطروباً مثالياً .

ولما تم الكتاب قامت بطبعه فى ديجو (فرنسا) سنة ١٩٢٢ الآنسة بيتش "Beach" ، وأهدت الى جويس النسخة المطبوعة الأولى يوم ٢ فبراير سنة ١٩٢٢ وهو عيد ميلاده .

ولم يبق الكثير من سرد أخباره ، فقد عانى ماعانى الى سنة ١٩٣٣ ، عندما أصدر القاضى الأمريكى حكمه بإطلاق الكتاب وإباحة طبعه ونشره ورفع الحجر عنه وحق مؤلفه فى استثماره .

وتوفى جويس سنة ١٩٤١ فى الستين من عمره بعد أن علا نجمه وتألق مجده، وأسدى ما أسدى الى الحق والحرية والعدل والأدب والفن واللغة ، وإن له عند الله يداً لأنه أتم رسالته ولم يبدد مواهبه ولم يضيع ميراثه ، ورضى بالذل والفقر والأسر لتحقيق غايته التى أرادها الله له ، فدخل فى عداد عباده الراضين المراعين حق الله فى عبقرية الكائن الإنسانى ، ولم يثر إلا على مظالم دهره، ولم يفقد ثقته بالله ، وفقد بصره فى سبيل عمله ولم يعرف الخنا

ولا الفساد لأنه اعتصم بالزواج فى فجر شبابه ، ولم يخن أمانة ، ولم يربح مالاً حراماً ، ولم يسع الى شهرة باطلة، ولم يضرب لأحد مثلاً سيئاً ، وعرف الخير وأحبه ، وعرف الشر فأبغضه ، وأقام للأخلاق والحرية صرحاً وأقام البيان ، وقد آتاه الله الفصاحة والبلاغة وكنوز اللغة فكان أميناً عليهاً ، وبر بوعده عندما قال إنه سيخلق فناً جديداً وعندما قال إنه سيؤلف كتاباً يشغل الدنيا .

وكان باراً بأهله وبأولاده وبوطنه ، وبالجملة كان جيمس جويس علماً من أعلام عهد الإحياء ، عاش فى معظم عمره غريباً حقيقة ومجازاً ، ومجهولاً من معاصريه الذين لم يعرفوا قدره إلا فى الندرى ، وهذا يزيده فى نظر التاريخ رفعة وقدراً .

محمد لطفى جمعه